

الموسوعة الأوراسية (*)

طالما سمعنا الشكوى من أن حجم منطقة الأوراس ودورها التاريخي والسياسي لا يتناسب مع حجم البحوث التاريخية المخصصة لها، في القديم والحديث فإذا دخلت إلى مكتبة ما أو راجعت قوائم البيبليوغرافيات عن المناطق الوطنية، فإنك ستلاحظ الفرق بين منطقة وأخرى فيها خصص لها من العناية العلمية والاهتمام بماضيها، وستلاحظ كذلك أن ما هو خاص بالأوراس قليل جداً، رغم أن المنطقة لها لعلة خاصة في صنع الأحداث عبر كل مراحل التاريخ لماذا هذا الامر؟

هناك أسباب بدون شك، ولكن الكتاب قد لا يتفقون عليها جميعاً. منطقة الأوراس كانت دوماً منطقة عبور للإنسان، أو منطقة هروب ومن ثمة فهي لم تعرف الاستقرار الذي هو لوازم الحضارة والثقافة. كانت قسنطينة هي المدينة الجاذبة لأهل الأوراس ولكنهم لم يستطعوا أن يؤثروا في المدينة أو يوجهوها إليهم لأنها كانت موضع جذب آخر، وهو الجذب البحري، ويعني بذلك المدن الساحلية أو القرية من البحر مثل ميلة وجيجيل والقل وعنبة إلخ. والمعروف أن إنسان البحر أكثر نشاطاً وفتحاً من إنسان الجبل والصحراء. وقد عرفت منطقة الأوراس في العهود الإسلامية مدينة بسكرة كقاعدة للملك والاستقرار، ولكن استقرارها لم يستمر طويلاً، خلافاً لقلعة بني حماد في الحضنة وبجاية في منطقة زواوة. ومن ثمة بقي علماء الأوراس وأعيانه يبحثون عن مستقر آخر غير منطقتهم. وكان عليهم نتيجة لذلك أن يتخلوا عن جبلتهم وأن يتلقوا في البيئات الجديدة وهكذا ضاعت جهودهم وبقيت منطقتهم مهرباً فقط للمغضوب عليهم والثوار الساخطين على النظم القائمة، تنتهي فيها الموجات ولا تطلق منها وأقرب حدث تاريخي إلينا هو ثورة نوفمبر، حيث كان الأوراس مجمع الأسلحة والثوار سنة 1954، وقد تحمل النصيب الأكبر في الستين الأولين للثورة، ولكن مؤتمر الصومام رجح الكفة لغيره وقد أحسن أهل الأوراس حتى في عهد الاستقلال بأن منطقتهم بقيت مجذوبة لا جاذبة، رغم ظهور باتنة كعاصمة إقليمية وظهور مدن أخرى مدعاة.

ولعل من أسباب إهمال الأوراس في الكتابات الأخرى، سيما في العهد الفرنسي أن المنطقة ظلت حصناً للثورات والقطيعة مع الإدارة الاستعمارية فكانت حقاً تمثل صمود المقاومة وكان الفرنسيون قد فهموا ذلك منها، وبدل أن يعملاً على إخضاع الأوراس اكتفوا بمحاصرته وتجریده من إمكانات الثورة عليهم إقصادياً وعلمياً، وأبقوه على الهاشم، فلم يكتبوا عنه إلا قليلاً ولم ينشروا فيه المدارس والصناعات والطرق ونحوها من وسائل اليقظة والخروج من العزلة، كما فعلوا مع بعض المناطق الأخرى مثل منطقة القبائل وبعض الجهات الغربية.

* مراجعة لأطروحة الدكتور عبد الحميد زوزو وعنوانها التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأقلية الأوراس (1837 - 1939).

وكانت سياسة فرنسا في الجزائر تقوم على ثلاثة ركائز خلاصتها التغريب بين الجزائريين وخلق الحساسيات فيما بينهم حتى لا يتحدون، وهذه الركائز هي : تغريب البعض وتبعد البعض وإهمال البعض. وهي السياسة نفسها التي اتبعتها بريطانيا في الهند أيضاً، ولكن على أساس ديني وطبيقي، ولذلك لاستغرب أن يفارخ الحاكم العام الفرنسي (شارل ليتو) سنة 1917 بأن الأوراس لم «يفتح» إلا في عهده هو، أمام الحضارة الأوروبية ولكن من الغريب حقاً أن يستخد الأستاذ عبد الحميد زوزو هذا التاريخ بالذات (1916) هو أحد عاملين في (نهضة) الأوراس الحديثة.

ومهما كانت الأسباب التي تقف وراء إهمال الأوراس في الكتابات والتاليف والاطروحات العامة، فالذى لا شك فيه هو أن الجيل الحاضر من أهل الأوراس قد شعروا بهذا الفراغ فأخذوا يفسدونه ويدونون تاريخ المنطقة تدويناً يليق بدورهم ومكانتهم ليس فقط في تاريخ الجزائر ولكن في تاريخ المغرب العربي عموماً، لأن الأوراس في الواقع هو قلب هذا المغرب العربي موقعها وهو حصنها الحصين رمزاً. ولا تشريب، بعد ذلك على أهل الأوراس فقد حافظوا على الأصول، وكانوا المرجع الصحيح للأصالة والاسلام واللغة العربية والفروسية، بينما اعتبرت غيرهم عوامل التفكك والمسخ حتى أخذوا يتشكرون في أنفسهم وهو يتهم.

* * *

في فاتح 1992 كنت أزور المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس، وعند مدخل بناء المطبوعات التقى فجأة مع الأستاذ شارل روبيرو جرون الذي لم ألقه منذ 1987 حين شاركتنا معاً في الملتقى الخاص بذكرى ميلاد نجم الشمال الإفريقي في باريس، وبعد السؤال عن الأحوال العلمية أخبرني أنه على أبواب التقاعد وأنه لم يبق عنده من الطلاب الذين يشرف عليهم غير طالب جزائري واحد هو عبد الحميد زوزو وأنه على وشك الانتهاء من عمله وأحسست من كلامه أنه بهذا الشرف الأخير سيودع الحياة الأكademie، فقلت له معزياً : لا عليك فالعمر ما يزال طويلاً وطريق البحث لانهائه له، ومثلك من له باع طويلاً في الحياة الجامعية، وباستطاعتك مواصلة المسيرة في البحث والتاليف وكتابه مذكراتك. وفهمت منه أيضاً أنه كان معترضاً على تلميذه الآخر - الذي كان أيضاً من تلاميذى الاولى - وقد توادعنا في انتظار الحديث الهام وهو مناقشة أطروحة عبد الحميد زوزو التي تمثل النهاية الأكademie للاستاذ أجرتون، والبداية للباحث زوزو.

وفعلاً ناقش الدكتور زوزو في الصيف الماضي (1992) عمله الموسوعي عن منطقة الأوراس وقد تفضل مشكوراً باطلاعه على إنجازه العلمي الضخم، وطلب رأيي فيه. إن عنوان الأطروحة وحده كاف للدلالة على طابعها الموسوعي أذ هو (التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأقلية الأوراس، 1837 - 1939) وإذا كان نظام دكتوراه الدولة في فرنسا يسمح بتناول موضوع واسع بهذا الحجم الضخم، فإني أكاد أحس بأن خلف اختيار الأستاذ زوزو لموضوعه عاملين، أولهما كتابة تاريخ يفتخر به أهل الأوراس (وهو منهم)، والثاني مضاهاة أطروحة أستاذ آخر عندما تناول «الجزائر الفرنسية» في أطروحة عنوانها بالضبط (فرنسا والمسلمون الجزائريون، 1871 - 1919) في 1312 صفحة مطبوعة ولذلك لاستغرب أن تجد أطروحة الباحث زوزو قد ضمت 1335 صفحة مرقونة.

وهناك بعض الملاحظات التي شدت إنتباها في أطروحة الأستاذ زوزو والتي نود أن نلقي بها النظر فهو يقول منذ البداية : أنه لن يكون له حكم مسبق ضد المستعمر، كما ليس له غرض لصالح المستعمر (بالفتح) ويعلن بصراحة أن هدفه من البحث ليس محاكمة المستعمر (بالكس) ولا إلتماس العذر للمستعمر (بالفتح) وأن هدفه الوحيد هو فقط دراسة الملامح والعلاقات التي كانت بين « المجموعتين » (كذا) خلال عهد طويل من « التعايش » استمر أكثر من مائة سنة وللوصول إلى هذه الدراسة المحايدة لجأ الأستاذ زوزو إلى الأرشيف فأثار له الطريق وجعله يوازن بين المعتقدات القديمة وبعض الأساطير التي زينها الاستعمار والنوايا السعيدة.

إن بعض العبارات والمصطلحات السابقة تحتاج إلى مناقشة ولو سريعة. صحيح أن الباحث قد ينطلق من موقف محايدها و مجرد حتى لا يقوده الرأي المسبق أو الهوى الشخصي أو الحزبي إلى نتيجة مسبقة أيضاً. ولكن نتيجة الدراسة المحايدة قد لا تنتهي نهاية محايدها، أو بالأحرى قد تكون موضوعية قاسية. لا يبدأ القاضي النزيه محايدها بسماح المدعى عليه والشهود والاطلاع على جميع البيانات والوثائق، ثم يصدر حكمه « الموضوعي » بالقصاص الذي يصل حد الاعدام آحياناً؟ والمؤرخ القاضي قد يبدأ بالحياد ولكنه بعد الحصصية والتوثيق اللازمين « لا يصدر أحكاماً حيادية » وإنما يقتضي للمغلوب من الغالب والمظلوم من الظالم، إذا كان طبعاً مؤرخاً وقاضياً نزيهاً.

وقد لفت نظرنا أيضاً عبارات نراها مطاطة وفيها الكثير من المجاملة التي قد تكون على حساب العلم ذلك أن زوزو قد إنطلق من الشعور بأن منطقة الأوراس كانت محرومة من ضوء التاريخ ومهملة في مسيرة العلم والثقافة ومظلومة إقتصادياً إلى درجة العظم . ومع ذلك يبدأ عمله بقوله : أنه ليس له غرض في إنصاف المستعمر (بالفتح) من المستعمر (بالكس) ولا الوقوف في صالح الأول ضد الثاني. فهل كان تعامل الاستعمار الفرنسي مع أهل الأوراس قضية تخفى على الباحث، ولا تظهر له إلا يوم عكس المعلوم بالضرورة، وهو أن الفرنسيين لم يستعمروا الجزائريين وإنما هؤلاء هم الذين استعمروا الفرنسيين. وما رأيك في عبارة : « المجموعتين » هذه التي تعني في مصطلح ذلك الوقت : الأهالي والأروبيين أو الأنجلوين والكولون. أن عبارة « المجموعتين » كانت مصطلحاً شائعاً عندما كان الفرنسيون يرفضون وجود الشعب الجزائري ويعتبرون الجزائر مسكونة بمجموعتين متتساوتين (أو متعاكدين كما عبر عن ذلك الأستاذ زوزو) حكم عليهما القدر أن يعيشَا معاً تحت العلم الفرنسي، وقد كانت العبارة شائعة لدى النخبة وفي أفلام الساسة الفرنسيين وحتى لدى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يعتبر الأمة الجزائرية ما تزال في طور التكوين - من المسلمين والأروبيين معاً . ولكن إذا كان استعمال مثل هذه المصطلحات جائزًا وشائعاً في الثلاثيات، فكيف يبقى مستعملاً ومقدماً بطريقة محايدها بعد ثلاثين سنة من عمر إستقلال الجزائر؟

* * *

ولعل القارئ ي يريد أن يعرف المخطط الذي بنى عليه الأستاذ زوزو موسوعته عن منطقة الأوراس. وبعد حوالي 80 صفحة كمدخل رجع فيه إلى الأزمة العتيقة والاسلامية، نجد أنه قد قسم العمل إلى سبعة أقسام ، وفي كل قسم فصلان أو ثلاثة فصول. مثلاً القسم الأول

لعلم فهمت من الفترة المذكورة (1837 - 1939) إن الأستاذ زوزو خصص بحثه لأقليم الأوراس مدة قرن فقط ولكن الواقع انه برغم هذه التواريخ في العنوان فإن الأطروحة تذهب أبعد وأقدم من ذلك. لقد تناول الأستاذ زوزو إقليم الأوراس منذ العهود القديمة جغرافية وسلامة وتاريخاً وعادات ولغة وكل الطواهر الأخرى من إدارة وقيادات وحروب وقبائل ونحو ذلك ومن ثمة فإن مصادره ليست هي فقط كتابات (سيروكا) و (لاريق) و (هيريبيون) و (ميرسييه) ومن إليهم من ضباط المكاتب العربية ورؤساء البلديات المختلفة من الفرنسيين، بل أن مصادر زوزو ترجع حتى إلى ما قبل التاريخ، ثم هيرودوت، وسالوست، وليفي، ثم ابن خلدون والبكرى والأدرسي والحسن الوزان (ليون الأفريقي) وهذه الحوله الواسعة في تاريخ الأقليم وهذا التناول الشامل لجزئياته هي التي جعلتنا نحكم على هذا العمل بأنه موسوعة أوراسية بكل معنى الكلمة. وبدون شك رجع زوزو أيضاً إلى الأرشيفات الوطنية والأجنبية وإلى المطبع من الكتب والمجلات والجرائد، بالإضافة إلى مخطوطات ووثائق الزوايا وحتى الروايات الشفوية. إن عملاً ظل في صاحبه حوالي خمس عشرة سنة، منقطعاً له مقتطعاً برسالته، متسلحاً بالوسائل العلمية والتقنية، مؤمناً بأنه يقدم به خدمة جليلة لنفسه وإقليمه ووطنه، لا يمكن إلا أن يكون جديراً بالاعتبار والتقدير.

وقد عبر زوزو عن دوافعه بصراحة، فكانت هي - فيما يقول - الشعور بالغبن والاهتمام من قبل الدارسين لمنطقة الأوراس وعلى المستوى الأكاديمي خاصة فإن المنطقة، كما يقول أيضاً، تكاد تخلو من الدراسة التاريخية والدراسات القليلة التي ظهرت حول المنطقة لاتقاد تحليلاً من المحاباة ومن الطابع الرسمي (الاستعماري) ويعتذر زوزو منذ البداية لأن موضوعه الجزئي لا يكاد ينفصل عن إطاره الكلي ، وهو تاريخ الجزائر العام ، ذلك أن أحداث منطقة الأوراس ليست معزولة عن أحداث مناطق أخرى مثل قسنطينة والخضنة والصحراء الشرقية ، والعكس صحيح أيضاً ومع ذلك خطط زوزو لمنطقة الأوراس فعرفها بأيتها المنطقة التي تضم باتنة وبسكرة وخنشلة وخنقة سيدي ناجي ، أما تبسة ووادي رieg ووادي سوف فلم يدخلها في خطط الدراسة ومع ذلك فهو يقول أنه لم يتقييد بالحدود المذكورة ذلك أنه من الصعب فصل ثورة الحداد والمقراني مثلاً عن الفروع الرحمنية في الأوراس ، ومن الأصعب أن تقضي الحركة الاصلاحية في منطقة الأوراس عن رأسها في قسنطينة بل والعاصمة. إن حركة الاستيطان الأوروبي وقوانين إنشاء البلديات ، والانتخابات ، والحركة الوطنية وأمثالها لا يمكن معالجتها إقليمياً دون بتر وتعسف.

ولعل الأخطر من ذلك أن نزعم اليوم حدوداً مكانية لقبائل الأوراس وهجاته ومراكيذه الدينية . وإذا كانت الشخصيات نفسها تقاطع باستمرار - بوعكار - بن قانة / أحمد باي - الأمير عبد القادر / ابن باديس - مصالي الحاج ، فإنه من الصعب بل من المستحيل الحديث اليوم عن زناتة أو هوارة أوراسية ، ذلك أن زناتة كانت منتشرة من غرب الجزائر إلى شرقها، كما أن مواطن هوارة متعددة كذلك ، ومنها تلك الموجودة حول الفيوم بمصر وهل يمكن القول إنها يحدرون من مغبة مثل هذه الأحكام ونعتقد أنه يقدر ماتعطى لمنطقة الأوراس الصبغة الوطنية بل والاسلامية والعالمية ، بقدر ماتزداد قيمتها في التاريخ ، وهذا يصدق في الواقع على كل منطقة وكل إقليم .



nitroPDF® professional

télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وأحسن الباحث أنه أمام تعسف وغطرسة في معاقبة الجزائريين على الانتفاضات والمقاومة، فكان النفي والتقيزيم والتجريد من الأملك، والقهـر، ولذلك فإن الفصلين اللذين إحتواهما القسم حـلـا هـذـيـن العـنـوانـيـن : التجـريـدـ منـ الأـمـلـاـكـ بـوـاسـطـةـ التـغـرـيـمـ، ثـمـ مـواـجـهـةـ السـكـانـ لـلـأـزـمـةـ. وـأـيـةـ مـواـجـهـةـ؟

وبعد الاحتلال والتنظيم الاداري والقضائي وفرض السلطة، جاء دور : (الحصول على الأرض لفائدة الاستعمار)، وهذا في الواقع هو عنوان القسم الخامس من الأطروحة ومن الوسائل التي جـاءـ إـلـيـهاـ الاستـعـمـارـ زـرـعـ الـمـسـطـوـنـيـنـ الـأـوـرـبـيـنـ فـيـ الـأـرـضـ الـجـزـائـرـيـنـ أوـ الـيـةـ كـانـتـ مـلـكـاـ لـلـدـوـلـةـ السـابـقـةـ، ثـمـ تـفـطـنـ نـابـلـيـونـ الثـالـثـ وـمـشـارـوـهـ إـلـىـ وـسـيـلـةـ أـخـرـىـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ خـلـاـيـاـ الـمـجـتمـعـ الـجـزـائـرـيـ وـإـغـصـابـ الـأـرـضـ مـنـ أـهـلـهـاـ بـدـلـ المـواـجـهـةـ، فـأـصـدـرـ قـانـونـ 1863ـ الـذـيـ نـصـ عـلـىـ أـنـ الـأـرـضـ الـعـرـشـيـةـ تـنـظـلـ عـرـشـيـةـ وـيـعـرـفـ بـهـ الـقـانـونـ كـذـلـكـ دـوـنـ الـاستـظـهـارـ بـوـثـائـقـ الـمـلـكـيـةـ، لـأـنـهـ أـصـلـاـ مـلـكـ مـشـاعـ لـلـقـبـيـلـةـ أـوـ الـعـرـشـ وـلـكـنـ وـرـاءـ هـذـاـ الـوـجـهـ الـجـمـيلـ خـلـقـةـ دـمـيـةـ، وـهـيـ أـنـ تـلـكـ الـأـرـضـ تـوـزـعـ بـعـدـ ذـلـكـ عـلـىـ أـفـرـادـ الـعـرـشـ وـتـبـثـتـ بـالـعـقـودـ الـفـرـديـةـ، ثـمـ تـكـوـنـ صـالـحـةـ لـلـبيـعـ لـلـأـرـوـبـيـنـ وـغـيرـهـ، عـلـىـ أـنـ جـزـاءـ كـيـراـ مـنـهـ يـصـبـحـ تـابـعـاـ لـلـدـوـلـةـ (ـالـبـلـدـيـةـ)ـ الـذـيـ سـيـنـشـاـ مـكـانـ أـرـضـ الـعـرـشـ، لـأـسـتـعـامـلـاـ فـيـ الـضـرـورـاتـ الـعـامـةـ، كـالـطـرـقـ وـالـكـيـسـةـ وـالـسـوقـ وـالـسـاحـاتـ إـلـخـ. وـرـغـمـ مـعـارـضـةـ الـجـزـائـرـيـنـ وـإـحـتـجاـجـاتـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ إـنـ الـعـصـاـ الـغـلـيـظـةـ هـيـ الـتـيـ نـجـحـتـ عـنـ طـرـيـقـ الـقـانـونـ الـذـكـورـ، وـقـانـونـ آـخـرـ أـكـثـرـ وـقـعـاـ مـنـ صـادـرـاـ سـنـةـ 1887ـ بـالـأـضـافـةـ إـلـىـ إـسـتـعـامـلـاـ الـمـصـادـرـاتـ وـالـاحـتـجاـزـاتـ Séguestresـ وـالـاجـلـاءـ. وـمـنـ ثـمـ نـجـدـ الـفـصـولـ الـثـلـاثـةـ الـتـيـ إـحـتوـيـ عـلـىـ الـقـسمـ الـخـامـسـ هـيـ: الـإـسـتـيـطـانـ وـالـاستـعـمـارـ قـبـلـ 1863ـ، وـتـبـلـيقـ الـمـرـسـومـ الـمـشـيـخـيـ (ـسـتـوسـ كـونـسـلـتـ)، وـالـمـصـادـرـاتـ وـالـاحـتـجاـزـاتـ وـآخـرـاـ قـانـونـ 1887ـ وـمـاـ عـقـبـهـ مـنـ مـصـادـرـاتـ أـيـضاـ (ـوـكـلـ هـذـهـ الـعـنـاوـيـنـ لـيـسـ خـاصـةـ فـيـ الـوـاقـعـ، بـمـنـطـقـةـ الـأـوـرـاسـ).ـ

وهـنـاكـ عـنـاوـيـنـ لـأـقـاسـمـ وـفـصـولـ كـنـتـ لـأـسـتـغـرـبـ إـسـتـعـامـلـاـ مـنـ الـأـسـاتـذـةـ الـفـرـنـسـيـنـ، مـثـلـ أـجـرـونـ، وـلـكـنـيـ أـسـتـغـرـبـ إـسـتـعـامـلـاـ مـنـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ.ـ فـقـدـ جـعـلـ عـنـوانـ الـقـسمـ الـسـادـسـ :ـ (ـالـاحـتـالـلـ الـمـعـنـىـ)ـ وـجـعـلـ عـنـوانـ أـحـدـ فـصـولـ هـذـاـ الـقـسمـ هـكـذـاـ :ـ (ـالـاحـتـالـلـ بـالـتـعـلـيمـ)ـ أـمـاـ الـفـصـلـ الـثـانـيـ لـلـقـسمـ الـسـادـسـ فـقـدـ جـعـلـ عـنـوانـهـ :ـ (ـالـاحـتـالـلـ بـإـضـعـافـ الـطـرـقـ الـدـيـنـيـ وـإـسـتـعـامـلـاـ الـرـوـاـيـاـ)ـ وـالـمـدـرـسـةـ الـتـارـيـخـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ هـيـ الـتـيـ تـقـسـمـ الـاحـتـالـلـ إـلـىـ مـراـحـلـ وـلـكـلـ مـرـحـلـةـ مـيـزـتـهـاـ وـمـلـمـحـهـاـ فـهـنـاكـ عـهـدـ التـرـدـ وـهـنـاكـ عـهـدـ الـاـحـتـالـلـ الشـامـلـ، وـهـنـاكـ عـهـدـ التـهـدـيـةـ وـالـتـرـوـيـضـ، ثـمـ يـبـدـأـ عـهـدـ الـاـحـتـالـلـ الـمـعـنـىـ الـذـيـ يـعـنـونـ بـهـ بـثـ وـسـائـلـ الـانـدـمـاجـ وـالـاـخـتـلاـطـ بـالـأـرـوـبـيـنـ وـإـنـتـشـارـ الـتـعـلـيمـ الـفـرـنـسـيـ وـتـوـظـيفـ بـعـضـ الـجـزـائـرـيـنـ لـيـقـوـمـوـ بـمـهـمـةـ الـفـرـنـسـيـنـ لـدـيـ مـوـاطـنـيـهـمـ الـمـسـلـمـيـنـ وـبـالـتـالـيـ إـنـ هـذـاـ عـهـدـ هـوـ الـمـسـمـيـ بـأـيـادـ فـرـنـسـاـ (ـلـهـمـهـاـ الـحـضـارـيـةـ)ـ فـيـ الـجـزـائـرـ وـالـمـلـاحـظـ أـنـ (ـالـاحـتـالـلـ الـمـعـنـىـ)ـ عـنـدـ الـفـرـنـسـيـنـ يـشـمـلـ، بـالـأـضـافـةـ إـلـىـ الـتـعـلـيمـ، التـطـبـيـبـ وـالـتـنـصـيـرـ وـالـأـعـمـالـ الـخـيـرـيـةـ، وـلـكـنـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ قـصـرـ الـاحـتـالـلـ الـمـعـنـىـ عـلـىـ (ـالـاحـتـالـلـ بـالـتـعـلـيمـ)ـ وـعـلـىـ تـوـظـيفـ أـخـرـ قـلـاعـ الـمـقاـوـمـةـ الـجـزـائـرـيـةـ وـهـيـ الـطـرـقـ الـصـوـفـيـةـ وـالـرـوـاـيـاـ وـمـهـماـ كـانـ الـأـمـرـ إـنـ هـذـاـ عـهـدـ يـبـدـأـ مـنـ عـقـدـ التـسـعـيـنـاتـ سـوـاءـ بـالـنـسـبـةـ لـلـتـعـلـيمـ أـوـ بـالـنـسـبـةـ لـلـمـوـقـعـ مـنـ الـمـؤـسـسـاتـ الـدـيـنـيـةـ، كـمـاـ أـنـهـ ظـاهـرـةـ لـيـسـ خـاصـةـ بـمـنـطـقـةـ

الـذـىـ يـضـمـ ثـلـاثـةـ فـصـولـ، عـنـوانـهـ (ـالـوـضـعـ حـوـالـيـ 1844ـ)ـ أـيـ حـينـ إـحـتـلـ الـعـدـوـ بـسـكـرـةـ وـمـنـطـقـةـ الـرـزـيـبـانـ وـاـنـهـمـ فـيـ خـلـفـاءـ الـأـمـرـيـرـ عـبـدـ الـقـادـرـ وـقـدـ يـتـنـاـولـ فـيـ التـسـكـينـ (ـالـسـكـنـ)ـ وـالـدـيـمـوـغـرـافـيـةـ وـالـجـانـبـ الـاقـتصـاديـ، ثـمـ الـسـلـطـاتـ الـمـحلـيـةـ وـهـوـ فـيـ هـذـاـ الـقـسمـ إـنـهاـ يـتـحـدـثـ عـنـ وـضـعـ الـمـنـطـقـةـ عـشـيـةـ الـاـحـتـالـلـ وـقـدـ إـحـتـوـيـ الـقـسمـ الـأـوـلـ حـوـالـيـ مـائـةـ صـفـحةـ وـبـذـلـكـ يـصـبـحـ هـوـ الـمـدـخـلـ حـوـالـيـ 180ـ صـفـحةـ، وـكـلـهـاـ تـعـتـبـرـ مـدـخـلـ إـلـىـ الـقـسمـ الـثـانـيـ الـذـىـ هـوـ فـيـ الـوـاقـعـ فـاتـحةـ الـأـطـرـوـحةـ، حـسـبـ عـنـوانـهـ.

فـعـنـوانـ الـقـسمـ الـثـانـيـ هـوـ الـاـحـتـالـلـ وـالـمـقاـوـمـةـ (ـ1837ـ - 1879ـ)، وـقـدـ ضـمـنـهـ الـبـاحـثـ ثـلـاثـةـ فـصـولـ يـأـيـضـاـ وـبـهـ يـدـخـلـ فـيـ صـمـيمـ الـمـوـضـعـ لـأـنـ سـنـةـ 1837ـ هـيـ سـنـةـ إـسـتـيـلاءـ الـفـرـنـسـيـنـ عـلـىـ قـسـنـطـيـنـةـ وـالـتـجـاءـ الـحـاجـ أـحـمـدـ بـايـ إـلـىـ الـأـوـرـاسـ، وـدـخـولـ اـبـنـ قـانـةـ تـحـتـ الـرـعـاـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ وـمـحاـولـاتـ فـرـحـاتـ بـنـ سـعـيدـ (ـبـوـعـكـانـ)ـ الـاـسـتـفـادـةـ مـنـ الـوـضـعـ الـمـضـطـربـ فـيـ الـأـوـرـاسـ لـصـالـحـ أـسـرـتـهـ.

وـخـالـلـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ الـطـوـبـيـةـ (ـإـلـىـ 1879ـ)ـ شـهـدـتـ مـنـطـقـةـ الـأـوـرـاسـ مـاـ لـيـكـادـ يـحـصـىـ مـنـ اـنـتـفـاضـاتـ ضـدـ الـمـحـتـلـيـنـ الـذـيـنـ أـخـذـوـنـ يـتـسـرـبـوـنـ مـنـ قـسـنـطـيـنـةـ إـلـىـ بـسـكـرـةـ (ـ1842ـ - 1844ـ)ـ بـعـدـ أـنـ وـضـعـواـ أـقـدـامـهـمـ فـيـ بـاتـنةـ وـأـمـتـدـتـ أـعـيـنـهـمـ إـلـىـ الـمـنـاطـقـ الـمـجاـوـرـةـ، وـقـدـ كـانـ عـلـىـ الـبـاحـثـ حـيـنـنـذـ أـنـ يـتـحـدـثـ عـنـ مـوـضـعـاتـ مـدـرـوـسـةـ إـلـىـ حـدـ مـاـ وـلـكـنـ لـأـمـانـصـ مـنـ ذـكـرـهـاـ مـاـدـامـتـ تـقـعـ فـيـ الـمـكـانـ وـالـزـمـانـ الـمـحـدـدـ لـلـقـسـمـ وـالـفـصـلـ، مـثـلـ ثـورـةـ الـرـعـاطـشـةـ وـحـرـيقـ نـارـةـ، وـثـورـةـ الـحـاجـ سـيـ الصـادـقـ، وـثـورـةـ الـمـقـرـانـيـ وـصـدـاـهـاـ فـيـ الـأـوـرـاسـ وـالـمـحـضـنـةـ وـالـزـيـبـانـ وـالـصـحـرـاءـ، وـمـحاـولـةـ التـشـوـيرـ الـقـاـمـ بـهـ الـأـمـرـيـرـ مـحـيـ الدـيـنـ بـنـ الـأـمـرـيـرـ عـبـدـ الـقـادـرـ، نـوـاحـيـ نـقـرـيـنـ وـسـوـفـ وـتـبـسـةـ، وـأـنـتـفـاضـةـ بـوـشـوـشـةـ وـشـرـيفـ وـرـقـلـةـ، وـأـخـيـرـاـ إـنـتـفـاضـةـ جـارـ الـلـهـ بـالـأـوـرـاسـ (ـ1879ـ)ـ فـهـلـ فـيـ إـسـتـطـاعـةـ قـسـمـ واحدـ مـنـ رـسـالـةـ تـضـمـ سـبـعـةـ أـقـسـامـ أـنـ يـغـطـيـ بـدـقـةـ كـلـ اـنـتـفـاضـاتـ؟ـ ذـلـكـ أـمـرـ صـعبـ.

وـلـكـنـ الـقـسمـ الـثـالـثـ مـنـ الـأـطـرـوـحةـ تـفـادـيـ تـحدـيـدـ الزـمـانـ، لـأـنـ الـأـحـدـادـ أـصـبـحـتـ تـنـظـيمـيـةـ وـتـرـوـيـضـيـةـ وـلـمـ تـعـدـ مـدـافـعـةـ وـمـقاـوـمـةـ فـقـدـ عـمـ الـاـحـتـالـلـ الـعـسـكـرـيـ وـتـكـوـنـ الـمـكـاتـبـ الـعـرـبـيـةـ وـعـيـنـتـ الـقـيـادـاتـ الـمـحـلـيـةـ الـمـوـالـيـةـ لـلـعـدـوـ، وـوـصـلـ الـاـحـتـالـلـ فـيـ الـخـمـسـيـنـاتـ إـلـىـ الـجـنـوبـ الـشـرـقـيـ، إـلـىـ وـرـقـلـةـ وـسـوـفـ وـتـقـرـتـ.ـ لـذـلـكـ كـانـ عـنـوانـ الـقـسمـ الـثـالـثـ:ـ (ـتـنـظـيمـ الـأـوـرـاسـ)ـ فـهـلـ هـذـاـ عـنـوانـ «ـمـحـاـيدـ»ـ فـيـ عـمـلـ يـفـتـرـضـ أـنـهـ لـيـسـ مـحـاـيدـاـ؟ـ لـقـدـ كـانـ الـفـرـنـسـيـنـ أـكـثـرـ صـدـقاـ فـيـ التـعـبـيرـ عـنـدـمـاـ أـطـلـقـوـاـ عـلـىـ الـرـحـلـةـ الـتـالـيـةـ لـلـاـحـتـالـلـ الشـامـلـ إـسـمـ (ـالـتـهـدـيـةـ)، وـهـيـ الـعـمـلـيـةـ الـتـيـ شـمـلـتـ إـسـتـعـامـلـ الـأـسـلـحـةـ مـنـ جـهـةـ وـاسـتـعـامـلـ الـتـرـغـيـبـ وـالـتـرـهـيـبـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـيـ أـمـاـ الـسـمـ (ـالـتـنـظـيمـ)ـ الـذـىـ اـسـتـعـمـلـهـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ فـهـوـ إـصطـلاحـ فـرـنـسـيـ يـرـادـ بـهـ الـسـيـطـرـةـ وـالـتـحـكـمـ فـيـ الـجـزـائـرـيـنـ عـنـ طـرـيـقـ الـاـنـدـمـاجـ الـادـارـيـ وـإـسـتـعـامـلـ الـوـسـائـلـ الـبـيـرـوـقـرـاطـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ مـكـانـ «ـالـأـنـظـمـةـ»ـ الـجـزـائـرـيـةـ (ـالـفـوـضـوـيـةـ؟ـ)ـ الـقـائـمـةـ عـنـدـئـلـ.ـ وـمـهـمـاـ كـانـ الـأـمـرـ فـيـ الـقـسمـ الـثـالـثـ تـضـمـنـ فـصـلـيـنـ فـقـطـ، أـحـدـهـمـاـ عـنـ الـتـنـظـيمـ الـادـارـيـ وـالـثـانـيـ عـنـ الـتـنـظـيمـ الـقـضـائـيـ.ـ وـفـيـ الـتـنـظـيمـ الـقـضـائـيـ وـجـدـ مـجـالـ لـلـبـاحـثـيـنـ فـيـ الـتـجـرـيـبـ الـفـرـنـسـيـةـ بـالـجـزـائـرـ عـامـةـ وـالـأـوـرـاسـ خـاصـةـ فـكـثـرـاـ مـنـ الـمـقاـوـمـةـ كـانـتـ مـنـ أـجـلـ الـاـبـقاءـ عـلـىـ تـطـبـيـقـ الـشـرـعـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ وـاحـتـرـامـ الـمـكـاـسـبـ الـشـرـعـيـةـ وـمـكـانـةـ الـقـاضـيـ الـمـسـلـمـ وـلـكـنـ الـفـرـنـسـيـنـ ضـرـبـوـاـ بـكـلـ ذـلـكـ عـرـضـ الـحـائـطـ وـقـضـوـاـ بـالـتـدـرـجـ عـلـىـ سـلـطـاتـ الـقـضـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ حـتـىـ انـحـصـرـ دـوـرـ الـقـاضـيـ فـقـطـ فـيـ كـتـابـ عـقـدـ الزـوـاجـ وـالـطـلاقـ.ـ وـرـغمـ إـعـلـانـ الـحـيـادـ، إـنـ الـمـطـالـعـ لـرـسـالـةـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ يـحـسـمـ أـنـ لـمـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـظـلـ كـذـلـكـ فـقـدـ عـالـجـ فـيـ الـقـسمـ الـرـابـعـ وـسـائـلـ الـمـتـغـلـلـ الـإـسـتـعـمـارـيـ، أـنـهـ عـلـىـ أـوـضـاعـ الـجـزـائـرـيـنـ،

المتحصصة وغيرها، ما يتعلّق بالمنطقة وغيرها أيضاً، ونکاد نقول في مختلف العصور مادامت البداية كانت من التاريخ القديم والاسلامي والعثماني والفرنسي حقيقة أن جل المصادر كانت من الأرشيف الفرنسي في مختلف مظانه، ولكن عند عقد موازنة بين إسـتـهـار المصـارـد في الأطـرـوـحةـ، فإنـاـ نـلاحظـ أنـ القـسـمـ السـابـعـ والأـخـيرـ منـ الرـسـالـةـ كانـ ضـعـيفـ التـوثـيقـ بالـنـسبـةـ لـغـيرـهـ. ولاـنـدرـىـ هلـ ذـلـكـ رـاجـعـ إـلـىـ كـوـنـ الفـرـنـسـيـنـ لمـ يـطـلـقـواـ سـرـاحـ كـلـ وـثـائـقـهـمـ التيـ تـبـدـأـ مـنـ 1919ـ، أوـ إـلـىـ كـوـنـ الـبـاحـثـ قدـ اـعـتـرـاهـ المـلـلـ وـالـتـعـبـ فـاـكـتـفـيـ بـعـضـ الرـوـاـيـاتـ الشـفـوـيـةـ أحـيـانـاـ مـنـ الـذـيـنـ عـاصـرـواـ الـأـحـدـاثـ، أوـ رـبـماـ يـعـودـ ذـلـكـ إـلـىـ كـوـنـ الـمـشـارـكـينـ فيـ أـحـدـاثـ الـجـزـائـرـ مـنـذـ 1919ـ مـاـيـزـالـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ. أـنـاـ لـاـنـدـرـىـ السـبـبـ بـالـضـبـطـ وـلـكـنـ الـذـىـ لـاـشـكـ فـيـهـ أـنـ تـوـثـيقـ الـقـسـمـ الـأـخـيرـ أـفـقـرـ مـنـ تـوـثـيقـ يـقـيـةـ الـأـقـسـامـ.

إـضـافـةـ إـلـىـ ثـرـوـةـ الـبـيـلـوـغـرـافـيـةـ، فإنـاـ نـجـدـ جـزـءـاـ كـامـلاـ مـنـ الـأـطـرـوـحةـ (وـهـيـ فـيـ أـرـبـعـ أـجـزـاءـ) مـخـصـصـاـ لـلـمـلـاـحـقـ، وهـيـ حـقـاـ مـلـاـحـقـ هـامـةـ وـغـنـيـةـ بـلـغـتـ سـتـينـ وـثـيقـةـ، بـعـضـهاـ طـوـيلـ وـأـخـرـ قـصـيـرـ، وـبـعـضـهاـ بـالـعـرـبـيـةـ وـأـخـرـ بـالـفـرـنـسـيـةـ، بلـ فـيـهـ الـوـثـائقـ الـمـكـتـوـبةـ بـالـعـرـبـيـةـ الـفـصـيـحـةـ وـأـخـرـ الـمـكـتـوـبةـ بـالـعـامـيـةـ. وـالـمـعـلـومـ أنـ الـمـلـاـحـقـ يـؤـتـىـ بـهـ لـأـثـرـاءـ الـأـطـرـوـحةـ بـهـ لـاـيمـكـنـ الـاـتـيـانـ بـهـ كـلـهـ أـثـنـاءـ الـتـحـرـيـرـ وـلـعـلـ هـدـفـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ مـنـ إـبـرـادـ هـذـاـ العـدـدـ الـكـبـيرـ مـنـ الـوـثـائقـ مـاـيـزـالـ مـظـانـهـاـ إـلـاـ بـعـدـ عـنـاءـ، وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ لـعـلـ هـدـفـ هـوـ وـضـعـ هـذـهـ الـوـثـائقـ أـمـاـ عـيـنـ أـهـلـ الـأـوـرـاسـ لـيـعـرـفـواـ مـصـادـرـ تـارـيـخـهـمـ وـبـيـنـطـلـقـواـ مـنـهـاـ فـيـ الـاـهـتـامـ بـهـ.

كـاـ تـضـمـ الـأـطـرـوـحةـ جـمـعـوـنةـ مـنـ الصـورـ لـعـضـ الـأـعـيـانـ الـجـزـائـريـنـ وـغـيرـهـمـ، أـمـثـالـ إـنـ قـانـةـ، وـعـلـىـ بـايـ بـوـعـكـازـ، وـعـلـىـ بـنـ عـيـسـىـ الـفـرجـانـىـ، وـسـيـرـوكـاـ، وـصـورـ أـخـرـىـ لـبـعـضـ الـمـارـكـ وـلـكـنـ نـظـرـاـ لـاـنـسـاعـ رـقـعـةـ الـبـحـثـ وـكـثـرـةـ الـقـادـةـ وـالـأـعـيـانـ وـالـمـارـكـ لـاـنـدـرـىـ لـمـاـذـاـ اـكـتـفـيـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ بـشـائـيـ صـورـ فـقـطـ فـائـنـ مـثـلـ صـورـةـ الـحـاجـ أـحـمـدـ بـايـ، أوـ صـورـةـ بـوزـيـانـ أوـ الـحـاجـ الصـادـقـ؟ـ وـنـحـنـ نـعـتـقـدـ أـنـ صـورـ الـعـدـيدـ مـنـ الـقـادـةـ وـالـأـعـيـانـ عـامـةـ مـتـوـفـةـ فـيـهـاـ يـسـمـيـ (ـالـكـتـابـ الـذـهـبـيـ)ـ لـلـجـزـائـرـ، وـكـذـلـكـ فـيـ كـتـابـ (ـأـعـيـانـ الـمـغـارـبـ)ـ لـعـائـلـةـ غـوـفـيـونـ، لـوـأـرـادـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ إـثـرـاءـ الـأـطـرـوـحةـ بـمـجـمـوعـةـ أـخـرـىـ مـنـ الصـورـ. وـقـدـ ضـمـتـ الـأـطـرـوـحةـ أـيـضاـ 26ـ رـسـماـ وـ22ـ خـرـيـطةـ، ذـاتـ قـيـمةـ كـبـيرـةـ.

إـنـ لـاـ يـسـعـنـاـ فـيـ النـهاـيـةـ إـلـاـ نـعـودـ إـلـىـ مـاـ بـدـأـنـاـ بـهـ وـهـوـ أـطـرـوـحةـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ هـيـ بـحـقـ (ـمـوـسـوعـةـ أـوـرـاسـيـةـ)ـ رـغـمـ أـنـهـاـ لـاـ تـخـضـعـ لـجـمـيعـ مـقـاـيـيسـ الـمـوـسـوعـاتـ فـيـادـتهاـ الـتـارـيـخـيـةـ وـتـنـوـعـ إـخـتـصـاصـاتـهاـ الـمـعـرـفـيـةـ، وـامـتـدـادـ أـرـمـتـهاـ، وـتـعـدـ أـحـدـاثـهاـ، كـلـ ذـلـكـ يـصـبـعـ عـلـيـهـاـ طـابـعـ (ـالـإـنـسـكـلـوـبـيـديـاـ)ـ أـمـاـ إـرـضـاءـ قـرـائـهـاـ مـنـ الـأـوـرـاسـيـنـ فـأـمـرـ مـسـتـحـيلـ فـيـ نـظـرـنـاـ لـأـنـ الـمـعـالـجـاتـ الـقـبـلـيـةـ الـيـوـمـ لـمـ تـعـدـ مـنـ الـمـسـلـمـاتـ الـعـلـمـيـةـ حـتـىـ تـقـنـعـهـمـ ثـمـ أـنـ الـادـوـارـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـدـيـنـيـةـ الـتـيـ لـعـبـهـاـ بـعـضـ الـأـوـرـاسـيـنـ فـيـ الـعـهـدـ الـاسـتـعـمـارـىـ لـنـ تـكـوـنـ مـخـلـعـةـ إـنـفـاقـ الـجـمـيعـ عـنـ إـصـدـارـ الـأـحـكـامـ عـلـىـ أـصـحـابـهـاـ وـلـكـنـ (ـرـضـىـ النـاسـ غـايـةـ لـاتـدـرـكـ)ـ، وـمـنـ هـذـاـ الـمـنـطـلـقـ يـمـكـنـاـ قـولـ بـأـنـهـ يـكـفـيـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ الـآنـ أـنـ يـصـبـحـ عـمـلـهـ مـرـجـعاـ أـسـاسـيـاـ لـتـارـيـخـ الـأـوـرـاسـ، بـلـ لـتـارـيـخـ الـجـزـائـرـ كـلـهـ كـمـ لـاـ يـسـعـنـاـ إـلـىـ أـنـ نـهـنـئـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ عـلـىـ تـجـاجـهـ فـيـ الـدـكـتـورـةـ وـنـجـاجـهـ فـيـ إـثـرـةـ هـذـهـ الشـجـونـ وـالـخـواـطـرـ حـولـ أـطـرـوـحةـ الـثـرـيـةـ بـالـاجـهـاتـ.

أـبـوـ القـاسـمـ سـعـدـ اللـهـ
جـامـعـةـ الـجـزـائـرـ
يـوـمـ أـوـلـ فـبـرـاـيـرـ 1993

الأـوـرـاسـ بـلـ هـيـ ظـاهـرـةـ طـبـقـتـ فـيـ الـقـطـرـ كـلـهـ، أـوـ بـالـأـحـرـىـ هـيـ الـفـلـسـفـةـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ الـجـدـيدـةـ فـيـ معـالـمـةـ الـأـنـسـانـ الـجـزـائـرـيـ فـيـ مـواجهـةـ الـنـهـضـةـ الـاسـلـامـيـةـ عـنـدـئـلـ وـمـجاـرـاـتـ سـيـاسـةـ الـاسـتـعـمـارـ الـانـكـلـيزـيـ فـيـ الـهـنـدـ وـالـمـهـولـنـدـيـ فـيـ الـانـدونـيـسيـاـ.

أـمـاـ الـقـسـمـ السـابـعـ وـأـخـيـرـ فقدـ سـارـ فـيـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ عـلـىـ مـنـوـالـ الـقـسـمـ السـادـسـ أـيـضاـ فـجـعـ عـنـوانـهـ (ـتـطـورـ وـتـحـوـلـ الـأـوـرـاسـ مـنـ 1900ـ إـلـىـ 1939ـ)ـ وـضـمـنـهـ ثـلـاثـةـ فـصـولـ، أـوـلـهـاـ عـنـ مـحاـولـاتـ «ـالـتـحـدـيـثـ»ـ فـيـ الـاـقـتصـادـ وـالـحـيـاةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ لـدـىـ الـأـوـرـاسـيـنـ، وـالـثـانـيـ تـنـاـولـ فـيـهـ الـتـصـنـيـفـ الـاجـتـمـاعـيـ (ـالـطـبـقـيـ)ـ وـمـسـتـوىـ الـمـعيشـةـ وـأـنـطاـطـهـ. وـكـانـ فـيـ هـذـينـ الـفـصـلـيـنـ خـلـدـونـيـاـ مـنـ جـهـةـ وـدـورـ خـاـيـمـاـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ. وـلـعـلـ سـيـادـةـ الـمـذاـهـبـ الـاجـتـمـاعـيـةـ بـيـنـ الـحـرـبـيـنـ فـيـ الـجـزـائـرـ وـغـيرـهـاـ هـوـ الـذـيـ جـعـلـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ يـلـجـأـ إـلـىـ الـتـصـنـيـفـ الـاجـتـمـاعـيـ (ـوـلـيـسـ إـلـىـ الـصـرـاعـ بـظـلـلـهـاـ عـلـىـ بـعـضـ الـفـقـرـاتـ وـالـتـفـسـيرـاتـ لـلـتـصـنـيـفـ الـمـذـكـورـ).

وـمـاـ يـلـفـتـ الـنـظـرـ حـقـاـ فـيـ هـذـهـ الـأـطـرـوـحةـ كـلـهـ، هـوـ عـنـوانـ الـفـصـلـ الـثـالـثـ مـنـ الـقـسـمـ السـابـعـ، وـهـوـ (ـيـقـظـةـ الـأـوـرـاسـ)ـ فـمـتـيـ بـدـأـتـ الـيـقـظـةـ الـأـوـرـاسـيـةـ إـذـنـ؟ـ وـمـاعـوـاـمـلـ ظـهـورـهـاـ؟ـ اـنـهـاـ عـنـدـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ قـدـ حـدـثـ مـنـذـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـ الـأـوـلـيـ وـمـنـ عـوـاـمـلـهـ:ـ ثـوـرـةـ 1916ـ الـتـيـ لـمـ تـدـرـسـ إـلـىـ الـآنـ دـرـاسـةـ وـطـنـيـةـ وـإـنـاـ درـسـتـ درـاسـةـ جـهـوـيـةـ. وـمـنـ عـوـاـمـلـ هـذـهـ الـيـقـظـةـ أـيـضاـ هـجـرـةـ الـأـوـرـاسـيـنـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ عـمـاـلـاـ وـإـخـتـلـاطـهـمـ بـالـعـالـمـ الـأـخـرـ كـمـ يـذـكـرـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ مـنـ عـوـاـمـلـ الـيـقـظـةـ إـنـتـخـابـاتـ 1919ـ الـنـاتـجـةـ عـنـ الـاـصـلـاحـاتـ الـمـوجـهـةـ لـاـكتـسـابـ النـخـبـ الـجـزـائـرـيـةـ إـلـىـ جـانـبـ فـرـنـسـاـ وـإـدـمـاجـهـاـ، مـكـافـأـهـاـ لـهـاـ عـلـىـ خـوـضـهـاـ الـحـرـبـ إـلـىـ جـانـبـ (ـأـمـ الـوـطـنـ)ـ وـأـخـيـراـ يـذـكـرـ الـبـاحـثـ الـجـيـانـيـةـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـقـلـاقـلـيـةـ فـيـ الـأـوـرـاسـ، بـيـنـ الـحـرـبـيـنـ وـهـيـ الـمـعـبرـ عـنـهاـ بـفـتـرةـ (ـالـنـهـضـةـ)ـ عـلـىـ الـمـسـتـوىـ الـو~طـنـيـ، وـهـيـ الـتـيـ اـبـدـأـتـ بـالـأـمـيرـ خـالـدـ وـمـرـتـ بـاـبـنـ جـلـولـ وـفـرـحـاتـ عـبـاسـ وـالـحـكـيمـ سـعـدانـ، ثـمـ إـنـ بـاـدـيـسـ وـمـصـالـيـ الـحـاجـ لـاـشـكـ اـنـ لـلـأـوـرـاسـ قـيـادـهـ الـاـصـلـاحـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ أـيـضاـ عـلـىـ الـمـسـتـوىـ الـمـحـلـيـ وـالـجـهـوـيـ.

إـنـ الـرـسـالـةـ تـبـدـأـ كـمـ ذـكـرـنـاـ بـحـيـاةـ الـأـوـرـاسـ الـبـدـائـيـةـ وـتـتـهـيـ بـالـأـوـرـاسـ وـقدـ إـسـتـيقـظـ وـدـخـلـ بـابـ الـنـهـضـةـ وـالـحـضـارـةـ. إـنـ الـبـحـثـ لـمـ يـبـدـأـ، كـمـ ذـكـرـنـاـ سـنـةـ 1837ـ، سـنـةـ إـحـتـلـالـ قـسـنـطـيـنـيـةـ وـانـتـشـارـ الـعـدـوـ كـالـجـرـادـ عـلـىـ مـنـطـقـةـ الـأـوـرـاسـ وـإـنـطـلـاقـ الـمـقاـوـمـةـ الـشـعـبـيـةـ الـمـعـرـوفـةـ. وـلـكـنـهـ بـدـأـ مـنـ الـأـصـوـلـ الـقـبـلـيـةـ وـالـأـنـثـوـغـرـافـيـةـ وـالـجـلـغـلـيـةـ لـلـأـوـرـاسـ، وـأـعـطـيـ ذـلـكـ حـوـالـيـ مـائـةـ وـخـمـسـيـنـ صـفـحـةـ مـنـ الـرـسـالـةـ قـبـلـ سـنـةـ 1844ـ (ـتـارـيخـ إـحـتـلـالـ بـسـكـرـةـ)ـ وـلـذـلـكـ قـلـنـاـ أـنـ الـعـمـلـ مـوـسـوعـيـ وـأـنـهـ إـنـطـلـقـ مـنـ الـحـيـاةـ الـبـدـائـيـةـ لـأـهـلـ الـأـوـرـاسـ وـإـذـاـ كـانـ لـسـنـةـ 1837ـ (ـبـلـ سـنـةـ 1844ـ)ـ مـبـرـرـاتـهـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ تـعـبـرـ عـنـ بـدـاـيـةـ تـغـيـرـ أـسـاسـيـ فـيـ الـبـنـيـةـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـاـقـتصـادـيـةـ وـالـقـلـاقـلـيـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ (ـوـفـيـ الـجـزـائـرـ عـامـةـ)، فـإـنـ سـنـةـ 1939ـ لـيـسـ هـنـاكـ مـاـ وـاصـحـةـ الـمـرـرـاتـ بـالـنـسـبةـ لـلـأـوـرـاسـ. مـاـ الـذـيـ حـدـثـ فـيـ الـأـوـرـاسـ دـوـنـ غـيرـهـ فـيـ هـذـهـ السـنـةـ. لـانـظـنـ أـنـ هـنـاكـ حـادـثـاـ حـدـثـ فـيـ الـأـوـرـاسـ يـسـتـوـجـبـ ذـلـكـ رـغـمـ القـوـلـ بـوـجـودـ تـحـوـلـ سـيـكـلـوـلـجـيـ فـيـهـ وـلـذـلـكـ فـإـنـ الـأـطـرـوـحةـ لـوـ اـنـتـهـتـ بـاـنـتـهـاءـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـ الـأـوـلـيـ، أـيـ بـنـتـيـجـ ثـوـرـةـ 1916ـ لـكـانـ هـاـ مـبـرـأـ وـضـعـ وـنـحـنـ نـلـاحـظـ ذـلـكـ مـنـ عـلـمـيـةـ التـوـثـيقـ نـفـسـهـاـ.

لـقـدـ رـجـعـ الـأـسـتـاذـ زـوـزوـ، كـمـ ذـكـرـنـاـ، إـلـىـ مـصـادـرـ وـمـرـاجـعـ كـثـيـرـةـ تـشـهـدـ لـهـ بـالـصـبـرـ وـالـثـبـاتـ وـالـتـعـلـقـ بـالـبـحـثـ وـحـبـ الـعـلـمـ الـفـيـضـيـ وـكـانـ مـنـ الـأـعـيـانـ أـنـ يـعـودـ إـلـىـ الـكـتـابـاتـ